علـى سالـــم

أسد الكوميديا الضاحك

* السخرية : عدوان .. هى إطلاق النار على الهـدف للقـضـاء عـليـه .. أمـا الضـحـك فهو تجريد الهدف من سلاحه لإغرائه على الانضمام لموكب العدل والحق والجمال ..

السـخـريـة هى وظيـفـة الثـعـالب والذئاب .. أمـا الضـحـك ، فـهـو مـن شـيم الأسود ..

علي سالم

* **على محمد على سالم ..**

* ولد يوم الاثنين (**١٨ من شوال عام ١٣٥٤هـ ـ الموافق ١٣ من يناير سنة ١٩٣٦ م**) فى شبرا البلد ـ محافظة القليوبية ـ (مصر) ..

* حصل على الشهادة الابتدائية سنة **١٩٤٩** من مدرسة فاروق الابتدائية الجديدة بدمياط .

* فى طفولته الأولى مارس مهناً كثيرة مثل : صبى « جزمجى » ، وصبى «نجار» ، و صبى « ترزى » ، و« منيفاتورة » ، و« تطريز» ، وغيرها من المهن العديدة ، وأحب التمثيل ، وراح يحفظ المنولوجات ، ويلقى النكت .. ولكنه آثر الكتابة فأصبح من أهم وألمع كتّاب المسرح المصرى والعالم العربى ..

* عاش فى دمياط مرحلة طفولته وشبابه.

* حصل على الشهادة الثانوية العامة منازل (**سنة ١٩٥٧**) من مدرسة بنى سويف الثانوية

* التحق طالباً منتسباً بآداب « عين شمس » ، إلا أنه ترك الجامعة ، و تفرغ لرعاية إخوته الصغار ، وذلك لوفاة والده (**سنة ١٩٥٧**) ..

* عمل موظفاً بوزارة الصحة حتى عام (**١٩٦٢**) ..

* التحق بالجامعة الأمريكية لدراسة « الترجمة الفورية » لمدة أربع سنوات ..

* ظهرت أعماله المسرحية عام (**١٩٦٥**) ، وهنا أيقن أنه لا يصلح إلا للعمل فى المسرح ..

* فى عام (**١٩٦٥**) أيضاً .. كان مديراً لفرقة « الجوانتى » بمسرح القاهرة للعرائس ..

* كان مديراً لقصر ثقافة أسوان عام (**١٩٦٨**)

* فى سنة (١٩٦٩) .. قدم مسلسلاً تليفزيونياً ـ من تأليفه ـ باسم « الفنان والهندسة » .. إخراج « محمد فاضل » ..

* فى سبتمبر ١٩٧٣ زار الولايات المتحدة الأمريكية بدعوة من الخارجية الأمريكية للتعرف على الحركة المسرحية ..

* فى سنة (١٩٨١) سافر إلى « النمسا » فى حلقة دراسية عن الأدب الأمريكى المعاصر ، تابعة لهيئة فولبرايت .

* فى عام (١٩٨٧) حصل على شهادة ال (F . C . E) فى دراسة اللغة الإنجليزية من « المجلس الثقافى البريطانى » ..

* فى سنة (١٩٨٨) .. قدم مسلسلاً تليفزنياً ـ من تأليفه باسم :«أحلام الحب والإعارة » من إخراج « سمير الفلال » ..

* فى سنة (١٩٨٩) .. التحق بجامعة (ميتشجان) فى منحة روكفلر للعلوم الإنسانية ..

* ألف أكثر من (٢٠) مسرحية ، عرضت بعضها فى كل القُرى المصرية والقاهرة ، و بعضها فى العواصم العربية ، و بعضها فى إنجلترا .. و واحدة بإذاعة السويد (بير القمح) .

* تميزت كتاباته المسرحية و الأدبية بالنقد البناء فى قالب فكاهى ممزوج بالضحكات والدموع من خلال عروضه ذات المضمون الذى يهدف إلى الإصلاح الاجتماعى ..

* **كتب فى العديد من الصحف و المجلات منها :**

ـ مجلة « أكتوبر » الأسبوعية التى صدرت فى (**٣١ أكتوبر عام ١٩٧٦**) ..

ـ مجلة « صباح الخير » التى تأسست فى عام (**١٩٥١**) ..

- مجلة « روز اليوسف » التى تأسست فى (**٢٦ أكتوبر سنة ١٩٢٥**) ..
- جريدة « الأهالى» الأسبوعية التى صدرت فى (**٣ فبراير سنة ١٩٧٨**) ..
- جريدة « الشعب » الأسبوعية ..
- جريدة « الأحرار » الأسبوعية .. التى صدرت فى (**١٤ نوفمبر سنة ١٩٧٧**)..
- مجلة « الشموع » الشهرية ..
- مجلة « كل الناس » سنة (**١٩٨٨**) ..

*** من مؤلفاته المسرحية التى طبعت وقدمت على المسرح :**

١ - « الناس اللى فى السماء الثامنة » صدرت عن وزارة الثقافة (**فبراير سنة ١٩٦٦**) وهى المسرحية التى فازت بجائزة مسابقة نادى المسرح لعام (**١٩٦٥**) .. (وقدمتها فرقة البحيرة وفرقة قرية كفر الشيخ) ..

٢ - « الملوك يدخلون القرية » فى سلسلة « الكتاب الذهبى » سنة (**١٩٧١**) .. قدمتها فرقة « المسرح الكوميدى » فى أبريل سنة (**١٩٧١**) من إخراج « سعد أردش » ..

٣ - « أولادنا فى لندن » عن مطبوعات الشعب فى يولية سنة (**١٩٧٥**)..

٤ - « **أربع مسرحيات ضاحكة من شدة الحزن** » **وهى** أيضاً من إنتاجه عدا الأخيرة

أ ـ «الكاتب فى شهر العسل »	**فصل واحد كتبت**
ب ـ « المتفائل »	**فى الفترة ما بين سنة**
ج ـ « الكاتب و الشحات »	**١٩٧٥ و سنة ١٩٨٠**
د ـ « الملاحظ و المهندس »	

(صدرت عن « دار الهلال » فى نوفمبر سنة ١٩٨٢)

٥ - « الكلاب وصلت المطار » صدرت عن « دار الهلال » فى يناير (١٩٨٥) . و هى من إنتاجه و إخراجه.

٦ - « خشب الورد » عن دار الهلال فى فبراير (١٩٨٧) ..

٧ - « انت اللى قتلت الوحش » سنة (١٩٦٩) صدر عن الهيئة

٨ - « عفاريت مصر الجديدة » سنة (١٩٧١) المصرية العامة

٩ - « عملية نوح » سنة (١٩٧٤) للكتاب سنة ١٩٨٩

١٠ - « بكالوريوس فى حكم الشعب » سنة (١٩٧٨)

١١ - « ولا العفاريت الزرق » (قدمها المسرح الكوميدى فى (يوليه سنة ١٩٦٥) من إخراج جلال الشرقاوى) ..

١٢ - « بير القمح » و « أغنية على الممر » : مسرحيتان قصيرتان قدمتهما فرقة المسرح الحديث على مسرح الزمالك فى (فبراير سنة ١٩٦٨) من إخراج : « أنور رستم » ..

١٣ - « البوفيه » : قدمتها فرقة الطليعة بمسرح « الحكيم » من إخراج «ماهر عبد الحميد » فى (مارس سنة ١٩٦٨) ..

١٤ - « حدث فى عزبة الورد » : قدمتها فرقة « ثلاثى أضواء المسرح » على مسرح « ميامى » فى أكتوبر سنة (١٩٦٩) من إخراج « عبد المنعم مدبولى » ..

١٥ - « كوميديا أوديب » : عرضت تحت اسم : « انت اللى قتلت الوحش » على مسرح الحكيم فى فبراير سنة (١٩٧٠) من إخراج « جلال الشرقاوى » ..

١٦ - « كوميديا أوديب » : عرضت تحت اسم : « انت اللى قتلت الوحش » على مسرح الحكيم فى فبراير سنة (١٩٧٠) من إخراج « جلال الشرقاوى » ..

١٧ - « بهلوان آخر زمن » قدمتها فرقة المسرح الشعبى يوم (١١/٢٨/ ١٩٧٤) ..

* أعمال ممصرة عن المسرح الفرنسى :

١٨ - « مدرسة المشاغبين » سنة (١٩٧١) ..

١٩ - « العيال الطيبين » سنة (١٩٧٣) ..

٢٠- « واحد فى المليون ـ مسرحية تليفزيونية »

٢١- « طبيخ الملايكة » سنة (١٩٦٨)

* من مؤلفاته الأدبية :

١- « اعترافات زوج » صدر عن « أخبار اليوم » سنة (١٩٨٩)

٢- « دليل المرأة الذكية » صدر عن « أخبار اليوم » سنة (١٩٩٠)

٣ـ « أيام الضحك والنكد » صدر عن الدار المصرية اللبنانيه سنة ١٩٩٢ .

* * *

(المكواة (*))

هل تصدقون أن رجلاً على وجه الأرض ، يكره كل إنجازات العلم المعاصرة من مخترعات حديثة تسهل على البشر كل أمور الحياة ؟

أنا هو ذلك الرجل ..

نعم ، فأنا أكره كل المخترعات الحديثة التى اخترعت من أجل راحة الإنسان ، بل و أحلم بالعودة لتلك الأيام الجميلة التى كان الإنسان الأول ينام فيها آمناً فى كهفه المريح فى أعماق الغابة ، لا يزعجه أزيز أجهزة التكييف ، ولايتبهدل عند الميكانيكى ، ولا يتعرض لعمليات القرصنة المنظمة التى يشنها عليه عمال صيانة الغسالات و الثلاجات و الفيديو و التليفزيون ..

لقد ظهرت فى السوق مكواة صغيرة ، أحدث إنتاج للتكنولوجيا المعاصرة ، لا داعى لأن تنشر ذرات الماء على الملابس تمهيداً لكيها ، فهذه المكواة مزودة بخزان داخلى تضع فيه الماء ، عند ذلك يسخن بفعل الكهرباء إلى درجة الغليان، وعند ذلك يتولى عقل اليكترونى صغير دفعه إلى الخارج من خلال فتحات صغيرة متناثرة على سطح المكواة ..

كان الإعلان عن المكواة فى التليفزيون يكاد يذهل العقول ، فقد كانت تخرج منها سحابة من البخار تعانق الملابس وقد أمسكت بها يد « مكوجية » ، حسناء ذات ابتسامة لا تقاوم ..

اشترينا المكواة .. ولأن كل اختراع جديد يوجد معه كُتيب بكل اللغات الحية والميتة ويشرح لك طريقة الاستخدام ويحذرك من مغبة سوء الاستعمال ،

(*) اعترافات زوج ..

فقد أخذت زوجتى تقرأ بإمعان هذا الكتيب .

اكتشفت أنه مرفق به ورقة معالجة كيميائياً تشبه ورقة عباد الشمس التى كنا نميز بها الحامض من القلوى فى حصص الكيمياء فى مرحلة الدراسة الثانوية..

اتضح أن هذه المكواة الفاضلة لا تتحمل أى نوع من أنواع المياه .. وأن زيادة نسبة الشوائب والأملاح فى الماء ، تفسد أجزاءها الدقيقة المرهفة .. وأنه لابد ـ ضماناً لسلامة الاستعمال ـ من الكشف على المياه بواسطة هذه الورقة المرفقة ..

كشفت زوجتى على مياة الصنبور التى نشرب منها ، والتى يشرب منها أجدادنا منذ آلاف السنين ، فاكتشفت أن نسبة الملوحة والشوائب العالقة بها كبيرة بحيث لا تصلح لأن تتغذى بها المكواة..

أجسامنا المسكينة تتحمل هذه المياه بكل شوائبها ، بينما هذه المكواة الأرستقراطية ، ابنة تكنولوجيا الغرب المهذبة ، لا تتحملها ، بل قد تصيب بالتلف أجزاءها الدقيقة المدللة ..

ـ والحل .. ؟ هل اشترى لها مياهاً مقطرة من الأجزاخانة بحيث يكلفنى كى القميص مبلغاً يعادل ثمن القميص نفسه ؟ .. أم أسقيها مياهاً معدنية ، بينما أشرب أنا من النيل مباشرة ؟ ..

ـ لا .. نشترى (فلتر) لتنقية المياه ، يوضع على الصنبور .

واشتريت (الفلتر) ، وركبته على الصنبور، وشربت المكواة هنيئاً مريئاً ، وانبسطت وبدأت تكوى ، وبدأ أفراد الأسرة أيضاً يشربون مياهاً نقية لا طعم لها

وكأنها الهواء .

بعد مرور عدة أيام حدث شيء غريب ، بدأنا جميعاً نشكو من آلام وتقلصات فى المعدة مجهولة السبب والمصدر .. قرر طبيب الأسرة بعد كل التحليلات التى أجريت فى أحدث المعامل الطبية ، وبعد الحصول على صور أشعة متعددة ، استخدمت فيها أشعة الليزر والمحاليل الذرية الملونة قرر الطبيب أن المسئول عن هذه الآلام هو تغيير نوعية مياه الشرب التى تعودت عليها أجسامنا لسنوات طويلة..

لابد من نسبة معينة من الأجسام الغريبة، والشوائب ، عندما تدخل المعدة، يستخدم الجسم كل قواه لمقاومتها ، وفى غياب هذه الأجسام (الضارة) يفقد الجسم الرغبة فى المقاومة ويصبح ضعيفاً ، فلا تتحمل مقاومة أضعف الميكروبات وأقلها شأناً ..

عدنا للشرب من مياه الصنبور العادية ، فاختفت الآلام على الفور.. وخصصنا الفلتر ، لتنقية المياه الخاصة بالمكواة فقط ..

أصيب الفلتر بعطب ، لم يتحمل المسكين كمية العمل المفروضة عليه، فقد كانت كمية الشوائب والطحالب أكبر من أن تتحملها أجزاؤه الدقيقة ..

فككته وذهبت إلى توكيل الشركة الخاصة به ، نظر المهندس الألمانى إلى أجزائه ثم قال باستنكار شديد :

ـ ماذا فعلتم به ؟ هل تستخدمونه فى تنقية شوربة العدس ؟..لم يحدث من قبل أن كسرت هذه الأجزاء الداخلية .. أنتم فى حاجة لمحطة تحلية مياه تعمل بالطاقة الذرية .. على كل حال سوف أطلب لك قطع الغيار المطلوبة من المصنع ، على أن تتحمل مصاريف المراسلات بالتلكس..

* * *

ارتفع سعر الدولار إلى الضعف مما ترتب عليه أن قطعة الغيار المطلوبة كلفتنى ضعف ثمن الفلتر نفسه ، ولكن للأسف ، بعد أن ركبنا قطع الغيار المطلوبة ، توقف الفلتر بعد أسبوعين .

ـ ماذا نفعل ؟

عدنا لقراءة الكتيب مرة أخرى ، اتضح أن هناك حلاً يشبه الحلول الدبلوماسية ، لا غالب و لا مغلوب .

من الممكن أن تعمل المكواة مثل بقية مكاوى البشر التقليدية ، بدون مياه تخرج من جوفها ، يعنى ترش المياه على الملابس من إناء منفصل ، ثم تستخدمها بشكل تقليدى .

و لكن .. و لكن ما فائدة الثقوب و التكنولوجيا المعاصرة إذن ؟ . أليس فيما نفعله إنكار و إهدار لجهد العبقرى الذى اخترع المكواة ؟.. أليس فيما نفعله تجاهل شرير لإنجازات العلم .. ؟

هذا ما كانت تلح علىَّ به زوجتى كل يوم ، ، ثم أخذت تحثنى أن أفعل شيئاً و ألا أستسلم للهزيمة بسهولة ..

لابد من الحصول على مياه نقية تصلح للمكواة ..

لذلك قررت أن أخوض معركتى على كل المستويات .. اتصلت بكل من أعرفهم فى مستويات السلطة المتعددة ، اتصلت بمسئول مرفق المياه .. كلمت قادة الأحزاب المعارضة ، أرسلت خطاباً لكل أبواب بريد القراء فى كل الصحف و المجلات .. بالطبع لم أذكر لهم حكاية المكواة ..

وما زلت أواصل معركتى ..

فلست منعدم الضمير إلى الدرجة التى أترك فيها هذه المكواة الأنيقة تموت عطشاً .

(كذبة بيضاء(*))

لم يحدث من قبل أن كذبت على زوجتى .. ليس لأنى فى غاية الشجاعة أو فى منتهى الاستقامة .. و لكن و بكل بساطة ، لأن ظروفى لم تحتم علىَّ ، أو لم تدفعنى أن أكذب عليها أكاذيب بيضاء أو منقوشة أو كاروهات أو من أى لون آخر .. فهى تعرف إيرادى الشهرى بالضبط ، وتعرف جيداً طبيعة عملى ، والأماكن التى أتردد عليها ، والأصدقاء الذين أسهر معهم أحياناً ، إذا حدث أن سهرت خارج المنزل ..

كنت أستمع لأصدقائى وهم يحكون ـ ضاحكين ـ الأكاذيب البيضاء التى يكذبونها على زوجاتهم ، وكنت أضحك معهم شاعراً بالتفوق لأننى أفضل منهم ، و لكن بمرور الوقت تحول هذا الشعور بالتفوق إلى شعور بالنقص .. حياتى تخلو من الأكاذيب البيضاء.. لابد أن يكون لى أنا أيضاً أكاذيبى الخاصة البيضاء .. على الأقل كذبة واحدة ، أفك بها عقدتى ، وأتخلص بها من شعورى بالنقص فى مواجهة زملائى الكذابين البيض .. وأخيراً جاءتنى الفرصة على طبق من الفضة ..

ذات مساء ، و أنا داخل مكتبى ، حانت منى التفاتة إلى غرفة الانتظار فوجدت سيدة حسناء ترتدى ثياب الحداد ، و تنظر أمامها ساهمة فى حزن .. كانت نظرتى الخاطفة إليها كافية لكى أتبين معالمها ، تلك المعالم التى قمت بتلخيصها تلخيصاً مُخلاً عندما استخدمت فى وصفها كلمة (حسناء) فقط ، الواقع أن المرء بحاجة لكى يكون «طه حسين» أو «نجيب محفوظ» لكى يجد لديه محصولاً وافراً من الألفاظ يصف به هذه السيدة الجميلة ، الأكثر من جميلة ..

(*) اعترافات زوج ..

أخبرنى الساعى أنها تريد مقابلتى.

ـ مقابلتى أنا ؟

ـ نعم ، تقول إنها أرملة أحد أصدقائك .

دار عقلى بسرعة ، أرملة صديق ؟ .. لم يحدث أن أحداً من أصدقائى قد مات قريباً .. كما أننى أعرف كل زوجات أصدقائى الأحياء والأموات لأننا نتزاور عائلياً .. قد يكون أحد معارفى .. على العموم ، دعها تدخل .

الآن هى جالسة على الكنبة المواجهة لمكتبى .. تحولت نظرتى لطيور رقيقة تحط فى رفق على تفاصيلها الرقيقة الساحرة ..

هذا النوع من الإناث لا تراه إلا مرتدياً ثياب الحداد .. فمن المستحيل وأزواجهن على قيد الحياة ، من المستحيل أن يسمحن لأحد بأن يراهن ! ..

تكلمت أخيراً فى ابتسامة عذبة يغلفها الحزن النبيل ، وبصوت هو أقرب لتغريد البلابل وصليل الأجراس الفضية الصغيرة :

ـ أنا أرملة المرحوم عبد الله القللى الذى كان زميلك فى البعثة فى إنجلترا ..

ياه .. إنجلترا .. ؟ البعثة ؟ .. خمسة وعشرون عاماً مرَّت على عودتى من البعثة .. القللى ؟ .. فشلت فى تذكر شخص بهذا الاسم .. كما تذكرت أن بعثتى كانت فى أمريكا وليس إنجلترا .. ولكن أى أهمية لذلك الآن ؟ قلت لها بحماس :

ـ نعم .. نعم .. القللى .. القللى .. كيف أنساه ؟ لم نكن نفترق أيام البعثة .. ولكن .. لم أشاهده منذ سنوات طويلة .. كيف حاله أقصد الله يرحمه .. كان ذوقه جميلاً فى كل اختياراته . ليرحمه الله .. تحت أمرك

يا سيدتى ..

سكتت للحظات ، وبدا عليها الحرج ، فقلت لها مشجعاً :

ـ أرجوك يا سيدتى ..لقد كان القللى من أعز أصدقائى وفى لندن لم يكن يخفى عنى سراً .. أنا أيضاً لم أكن أخفى عنه أى شىء من تفاصيل حياتى .. أرجوك .. حدثينى بصراحة ..

قالت و عيناها مغرورقتان باللآلئ ، أقصد بالدموع :

ـ كان مغامراً .. أضاع كل ثروته وثروتى فى البورصة وسوق الأوراق المالية.. ولم يتحمل .. فمات .. ليس أمامى إلا أن أبيع الفيلا وأبحث عن سكن متواضع .. فهل أجد لديك مشترياً ؟

ـ لا مشكلة فى ذلك يا سيدتى .. سوف أكلم أصدقائى سماسرة العقارات .. و سوف نجد مشترياً يدفع مبلغاً طيباً ..

قالت : **هناك أمر آخر .. لدى معاطف فراء كثيرة وملابس .. كلها مشتراة من بيوت الأزياء العالمية وبعضها مصمم خصيصاً لى .. أريد أن ..**

عند ذلك فقدت تماسكها وأجهشت فى البكاء بحرقة .. انتقلت إليها على الفور لأهدئ من روعها ، وأطيب خاطرها ، وأمسح دموعها .. كان الله فى عونها .. من الواضح أنها كانت فى حاجة لتقود ..

على الفور قلت لها :

ـ بنت حلال .. لى صديق يريد شراء معطف من الفراء لزوجته .. فإذا كنت حقاً تنوين التخلص منها ، فيسعدنى أن يكون لصديقى نصيب فى واحد منها ..

فقالت : **إذا تفضلت فأرسل الساعى يحضر سائقى .. معى فى السيارة ثلاثة معاطف .. اختر منها واحداً .**

* * *

جاء السائق ومعه المعاطف الثلاثة ، اخترت واحداً منها شاهق البياض ، قالت لى :

ـ هذا هو أفضلها ، اشتراه لى زوجى فى العام الماضى ..كان ثمنه خمسة وعشرين ألف دولار .. الآن ثمنه أكثر من ذلك بكثير ، ومع ذلك أنا على استعداد لأن أبيعه بخمسة آلاف دولار فقط .. صدقنى لقد ارتديته مرة واحدة فى باريس ..

على الفور كتبت لها شيكاً بالمبلغ ثم انصرفت شاكرة بعد أعطتنى رقم تليفونها لكى أكلمها عندما أجد مشترياً للفيلا ..

بعد انصرافى من العمل مررت بأحد أصدقائى وهو متزوج من سيدة من أسرة أرستقراطية عريقة .. تفهم فى أنواع الفراء كما أفهم أنا فى أنواع السمك .. شهقت زوجة صديقى إعجاباً وهى تتأمل المعطف :

ـ هو الآن ثمنه لايقل عن ستين ألف دولار .. انتظر قليلاً سوف أضعه لك فى علبة فاخرة ..

* * *

أخيراً جاءت الفرصة لكى أكذب على زوجتى الكذبة البيضاء التى أحلم بها منذ وقت طويل ، قلت لها إننى طلبت من أحد أصدقائى الذين يقيمون فى باريس أن يرسل لى بهذا المعطف الغالى لكى أقدمه لها بمناسبة مرور عشرين عاماً

على زواجنا ..

سعدت زوجتى بالفراء سعادة من الصعب وصفها .. وأخذت تبتهل إلى الله سبحانه وتعالى أن يرسل على الأرض موجة من البرد عاتية قارصة مصحوبة بالزمهرير والجليد لكى تتمتع بارتدائه ، وأخيراً استجابت السماء لدعواتها وجاءت الفرصة ، موجة برد مصحوبة بالصقيع لم تشهدها البلاد منذ أكثر من مائتى عام كما قالت مصلحة الأرصاد ، عند ذلك قررنا ـ أو قررت هى ـ أن تزور عمتها .

بعد خروجنا من المنزل وقبل أن نركب السيارة ، فوجئت بشخص يظهر أمامى فجأة ، قال :

ـ هل أنت فلان ؟

أجبته بالإيجاب فقال باقتضاب :

ـ تفضل معنا .. أنت والمدام ..

* * *

وجدت نفسى أنا وزوجتى فى سيارة الشرطة البوكس ، وقد شل عقلى عن التفكير تماماً .. أدخلونا على ضابط المباحث الذى رحب بنا ، ثم طلب لنا مشروباً ساخناً ثم سألنى فجأة :

ـ من أين أتيت بهذا المعطف ؟

استجمعت كل قدرتى على الكذب وأجبته :

ـ من فرنسا .. من باريس .. عاصمة المعاطف .. أقصد عاصمة فرنسا .. أرسله لى صديق ..

قال بهدوء :

ـ اسمع هل تفضل ذكر الحقيقة ، أم تفضل أن أوجه لك تهمة السرقة ، أم لعلك تفضل تهمة إخفاء أشياء مسروقة ؟

قال ذلك وأخرج لى صورة فوتوغرافية كارت بوستال .. كانت الصورة للسيدة الحسناء .. هل تعرف هذه السيدة الحسناء ؟ لا فائدة من الإنكار قلت باندفاع صادق :

ـ لقد شاهدتها مرة واحدة فى حياتى .. قالت لى إنها أرملة أحد أصدقائى فى البعثة واسمه القللى .. كانت فى حاجة لنقود فاشتريت المعطف منها ..

فى هذه اللحظة نظرت لى زوجتى نظرة مرعبة ، فنظرت إلى الأرض على أمل أن تبتلعنى ، ولكن لم يحدث وظللت واقفاً فى خجل وذلة وانكسار أمام الضابط و زوجتى ..

خلعت زوجتى المعطف فى هدوء وألقت به على أحد المقاعد ..قال الضابط :

ـ هى ليست أرملة ، هى متزوجة من « عبده رامبو » لص المساكن الشهير.. واسمها سنية الشحات ، واسم الشهرة سنية سوابق .. وهى تقود عصابة لسرقة الطبقة الأرستقراطية .. ثم تقوم بتصريف البضاعة بطريقة ذكية مستعملة جمالها وقدرتها على التمثيل .. و.. طمع بعض السذج فيها .. هذا المعطف مسروق من أسرة « عنايات » المعروفة .. الأمر يعتبر منتهياً بالنسبة لسيادتك .. هل تسمح بكلمتين فى المحضر ؟

* * *

خرجت أنا وزوجتى من القسم فى تلك الليلة المشئومة ، لم تكن هناك تاكسيات فى الشوارع ، وبدأت السماء تمطر .. كنت أرتجف من البرد والخجل .. وكانت زوجتى ترتجف من البرد والغضب .. كانت درجة الحرارة تحت الصفر .. واستطعنا الوصول إلى المنزل .. أشعلت كل الدفايات وأدرت أجهزة التكييف بأقصى طاقتها .. وبعد ساعتين قلت لها :

ـ أنا آسف ..

ردت هامسة :

ـ لم يحدث ما يدعو للأسف .. إنها مجرد كذبة بيضاء كان القصد منها إسعادى .. ولكن أريد أن أعرف منك شيئاً آخر .. ماذا كنت تريد من هذه السيدة ؟ ..

قالت ذلك وهى تمد يدها فى اتجاه (فازة) كبيرة ، ما حدث بعد ذلك ليس من حق القراء أن يعرفوه .. فلم أبح به لمخلوق .. حتى طبيب الإسعاف الذى عالجنى فى نفس الليلة فشل فى أن يعرف منى مصدر كل تلك الإصابات فى وجهى وجسمى ..

* * *

(زوجتى .. وآلام البشر (*))

بعض الرجال فى هذا العالم محظوظون .. منهم من استطاع أن يكوّن ثروة كبيرة ، ومنهم من حصّل مجداً أدبياً وسياسياً أو فنياً عريضاً .. أما أنا .. فمن الممكن اعتبارى أكثر الرجال حظاً . فقد حققت ـ بفضل الله ـ قدراً معقولاً من المال يتيح لى حياة كريمة ، وحققت أيضاً فى عملى نجاحاً يحسدنى عليه البعض .. وبالإضافة لكل ذلك ـ وهذا هو المهم ـ فقد رزقنى الله بزوجة طيبة ، رقيقة ، عطوف ، فائقة الحساسية والإنسانية ..

خطبتها لى أمى بالطريقة التقليدية بعد فشل مرير لقصة حب طويلة انتهت إلى لا شىء ، أسلمتنى لحالة من اليأس واللامبالاة ، وجعلتنى فى النهاية أرضى بأن أتزوج بالطريقة التى تزوج بها أجدادى ..

بعد جلسة واحدة مع خطيبتى ، اقتنعت ، بل وآمنت أننى ـ بمحض الصدفة ـ قد وفقت إلى المرأة الكنز كما تصفها الحواديت والأساطير والتى يحلم بها أى رجل ..

جميلة ، رشيقة ، جادة ، تتكلم بلا تكلف أو تصنُّع فى صوت رقيق عذب خافت .. ترتدى ملابس بسيطة رائعة الذوق ، فهمها للاتجاهات السياسية لا يقل عن فهمها لكل المدارس الفلسفية القديمة والوسيطة والمعاصرة ، حجة فى التاريخ ، موسوعة فى الموسيقى ،وتجيد الطهو .. ضع كلمة تجيد واكتب بجوارها أى كلمة أخرى لكل ما هو جميل ومفيد فى هذا العالم ، ستحصل فى النهاية على وصف دقيق لزوجتى ..

(*) اعترافات زوج ..

سوف تقولون ، يا بختك ..

نعم ، يا بختى .. ولكن المثل الشعبى يقول : «**الحلو لا يكتمل**» .. !

انتظروا قليلاً حتى أكمل اعترافى .. فى أسبوعين فقط انتهيت من إعداد (فيللتنا) الأنيقة التى ساهمت فى تهيئتها بلمساتها الحانية .. حتى الحديقة ، فوجئت بها توجه « الحدائقى » وتعطيه إرشاداتها بطريقة تؤكد فهمها العميق للزراعة وتنسيق الحدائق .. من المؤكد أننى حتى الآن قد تزوجت من حورية جاءت من الجنة متنكرة فى هيئة البشر ..

وفى رحلة شهر العسل ، تبينت عيبها الوحيد الأساسى ، الواحد والوحيد .. كانت تنفعل ـ بقوة ـ بآلام الآخرين ، وتشعر بمسئولية كبيرة تجاه البشر فى كل مكان .

وهل هذا عيب يا رجل ؟ ألن تكفوا عن الافتراء على النساء يا معشر الرجال .. ؟

انتظروا قليلاً واستمعوا جيداً لاعترافى ..

هل تعرفون مطعم « ماكسيم » فى باريس .. ؟ بالتأكيد أنتم تسمعون عنه كما كنت أسمع وأقرأ عنه طوال عمرى .. اصطحبتها إلى هناك لننعم بعشاء فخم نظل نذكره فى قادم الأيام والسنين .. وفى ذلك المطعم الفخم ، كتيبة كاملة من الجارسونات والسفرجية جاءت ترصع مائدتنا بشهى الأطباق وبأصناف الطعام الفخم التى لم أعرفها من قبل ، والتى لم أكن أتخيل وجودها من قبل ... بداية طيبة لشهر العسل .. أليس كذلك ؟ ..

لا .. لم يكن الأمر كذلك ..

فوجئت بسحابة من الكآبة تعلو وجهها وهى تنظر بشرود لأطباق الطعام ..

ـ مالك يا حبيبتى .. ؟

ـ لا .. لا شيء .. فقط كنت أفكر فى أطفال أفريقيا الذين يموتون جوعاً فى كل لحظة .. إن العالم اليوم تنقصه روح الأخوة الحقيقة .. هم فى النهاية بشر ، وإخوة لنا ..

رسمت على وجهى مسحة حزينة وجادة وقلت لها مواسياً :

ـ يا حبيبتى : إن العالم كله يرسل لهم الطائرات الضخمة محملة بالأغذية كل يوم ، ولقد قرأت هذا الصباح عن رجل كندى تبرع لهم بمزرعته الكبيرة .. سيبيعها ويعطيهم ثمنها .. الناس فى العالم كله متعاطفون معهم ..

قالت برقة وهى تنظر للطعام فى حزن :

ـ وماذا فعلنا نحن ؟ أنا وأنت ؟ .. ماذا فعلنا من أجلهم ؟ .. أرجو ألا أفقدك شهيتك بهذا الحديث .. وأنا آسفة لخوضى فى هذا الموضوع فى هذه اللحظات .. ولكنك سألتنى ، وأنا لا أريد أن أخفى عنك ما أفكر فيه ..

ـ طبعاً يا حبيبتى طبعاً .. وأنا أيضاً أقدرلك إحساسك بآلام الآخرين .. ولكن جرّبى هذه الشوربة ، ذوقى هذه السلطة الرائعة .. ما رأيك فى هذا الكافيار المدهش ؟

اغتصبت ابتسامة شاحبة وأخذت تأكل بضع لقيمات بدافع من المجاملة وبشكل لا استمتاع فيه .. أنا أيضاً فقدت شهيتى للأكل ، ورفع الجرسونات ـ وقد اكفهرت وجوههم ـ الأطباق وعادوا بها كما هى .. وكأن لم يمسسها بشر ..

اقترب منى رئيس الجرسونات بوجه ممتقع ، انحنى فى أدب وهمس فى أذنى :

ـ سيدى ، من المعروف فى هذا المطعم العريق أن الأطباق التى تخرج للزبائن تعود ممسوحة تماماً .. هذه هى المرة الأولى فى تاريخ هذا المطعم التى تخرج فيها هذه الأطباق وتعود للمطبخ كما هى .. لقد أصيب رئيس الطباخين بانهيار عصبى ، ومديرالمطعم ينتظرك فى مكتبه لكى تقدم له تفسيراً لما حدث .. إن ما حدث منكما يا سيدى من الممكن أن يصيب السياحة فى فرنسا بآثار بالغة الخطورة .. و .. و ..

بفرنسيتى الضعيفة ، قضيت ساعتين أحاول إقناع مدير المطعم بأن العيب يكمن فينا نحن وليس فى طعامه ، وفى النهاية كتب محضراً بالواقعة فى حضور مسئول السياحة فى باريس ووقعت عليه أنا وزوجتى لكى يؤمن موقف المطعم ويحمى سمعته فى حالة تسرب الخبر للصحافة .

خرجنا من المطعم فى تلك الليلة وأنا أكاد أموت جوعاً . أوصلتها للأوتيل ونزلت إلى الحى اللاتينى على الفور لأشترى سندوتشاً مغربياً مليئاً بالشطة وبأنواع أخرى من المتفجرات ، وقضيت ليلة سوداء فى عاصمة النور تؤرقنى فيها الكوابيس وآلام المعدة وحرقان الغليظ .

***واليكم قصة أخرى :**

ـ فى قرية سويسرية ترقد فى أحضان الجبال الثلجية ، وفى فندق قديم جميل ، جلسنا فى بهو الفندق بجوار المدفأة نستمع لموسيقى موزار الشجية .. تطلعت إليها فوجدتها تنظر بشرود لنيران المدفأة وقد اغرورقت عيناها بالدموع التى ما لبثت أن بدأت تسيل على وجنتيها .

ـ ماذا بك يا حبيبتى .. ماذا يؤلمك ؟

ردت بصوتها المليء بالرقة والعطف :

ـ لا شيء .. أرجوك لا تسألنى .. لا أريد أن أفسد استمتاعك بهذه اللحظات الجميلة .

ـ أرجوك يا حبيبتى .. دعينى أشاركك فى أحزانك .. لماذا تبكين ؟ ..

أجابت :

ـ هذا الدفء .. هذا الجمال .. كم من البشر على ظهر الكوكب يبحثون عنه ولا يجدونه .. كم من البشر الآن يرتعدون من البرد ، وكم منهم تعذبهم حياتهم التعسة .

قلت لها وأنا أتثاءب :

ـ كثيرون يا حبيبتى .. كثيرون ، من الأفضل أن ننهض الآن للنوم مبكراً .. لقد قررت أن أقطع شهر العسل وأن نسافر فى صباح الغد .. لابد أن أُعود لعملى فوراً ..

صاحت بدهشة :

ـ لماذا يا حبيبى ؟

ـ بصراحة تعذبنى فكرة أن الآخرين يعملون وأنا هنا أستمتع بالحياة فقط ، كم من البشر يعملون الآن فى المناجم والمصانع ، يكدون ويكدحون ويشقون ، بينما أنا هنا أستمتع بحياتى وبالدنيا فقط ولا أقدم للبشر أى شيء مفيد .. أصارحك القول ، لقد استيقظ ضميرى أخيراً بفضلك .. لقد قررت قراراً لا رجعة فيه ألا أستمتع بأى شيء ..

ومن يومها ، لم تحدثنى عن آلام البشر ..

(التكنولوجيا : مارد العصر (*))

*** تماماً .. كما كان يحدث فى الحواديت القديمة .. عثر الرجل على مصباح علاء الدين .. ذلك المصباح الشهير الذى يخدمه أحد المردة الطيبين .. ومسح الرجل بسعادة بكفه على جانب المصباح ، عند ذلك جاء المارد على الفور.. لعله قطع فى رحلته المجهدة ملايين ملايين الأميال ، آتياً من مكان مافى ذلك الكون الذى لا نهاية له ..أو لعله كان يرقد فى أعمق الأعماق فى البحر .. المهم أنه جاء » ..**

* * *

انحنى المارد أمام الرجل فى خضوع وقال :

ـ شبيك لبيك ، عبدك وبين إيديك .. ماذا تطلب ؟ إننى مكلف أن أحقق لك ثلاث رغبات ..

استولت المفاجأة على الرجل ونظر بذهول ورهبة إلى المارد الماثل أمامه ، ثم هرش فى رأسه مفكراً : لا بد من الاستفادة من الموقف إلى أقصى حد .. وبعد لحظات صمت طويلة أعلن رغبته الأولى :

ـ « ساندوتش شاورمة » ..

صدم المارد من هذا الطلب المفاجئ الغريب ، ولكنه جاء بالمطلوب : ساندوتش شاورمة ساخن لذيذ ، لعل بشرياً لم يأكل مثله من قبل.

ثم أعلن الرجل بعد أن هرش فى رأسه مفكراً ، رغبته الثانية :

ـ « شوية طُرْشِى ، وكتّر الفلفل ..

(*) مجلة كل الناس ١٨ سبتمبر ١٩٨٩ ..

بدأ المارد يشعر بالإهانة من هذه الرغبات التى تحتقر إمكانياته الهائلة ، ولكنه استجاب لطلب الرجل وأحضر له « طبق طرشى » يحوى أنواعاً من المخللات ، لا نعتقد أن مائدة عرفته من قبل ، بعد ذلك وقف المارد منتظراً رغبة الرجل الثالثة والأخيرة ، محاولاً قدر استطاعته أن يخفى إحساسه بالاحتقار ..

وبعد أن هرش الرجل فى رأسه مفاخراً ، وأعلن بحماس رغبته الأخيرة :

ـ « **قطعة بقلاوة** » ..

وبكل ما يشعر المارد من خيبة أمل .. جاءه بقطعة البقلاوة التى كانت ـ والحق يقال ـ حلاوتها تفوق حلاوة أى شىء آخر على وجه الأرض ..

* **ماذا حدث بعد ذلك ؟**

فى الغالب .. تضاءل المارد من القهر والغم والنكد إلى أن أصبح كائناً صغيراً ، وحبس نفسه فى المصباح .. ومن المؤكد أنه لم يعد يخرج ملبيا رغبات البشر .. حتى ولا فى الأحلام .. حتى ولا فى الحواديت القديمة أو المعاصرة ..

* **ما رأيك فى ذلك الرجل ؟ هل تعتقد أن له وجوداً ؟..**

الإجابة : «نعم» ..

فقد قرأت فى الصفحات الأولى فى بعض الجرائد اليومية عن مستشفى حديث كبير ، ولقد حرص الخبر المنشور على أن يزف للقارئ بشرى أن غرف العمليات سوف تكون على هيئة قوقعة ، أما المريض ، فسوف ينقل من غرفة العمليات إلى غرفته «بالريموت كونترول» كما لو كنا نشكو من قلة البشر القادرين على دفع «الترولى» الذى يرقد عليه المريض إلى غرفته بكل الحرص اللازم ..

لتكن غرفة العمليات على هيئة قوقعة ، أو حتى على هيئة « كابوريا» .. فليس هذا هو المهم وإن كان يكشف غرامنا واهتمامنا بالشكل دون الجوهر ..

أما حكاية الريموت كونترول الذى ستستخدمه فى تحريك «التروللى» الذى يرقد عليه المريض فهو أمر مفزع حقاً .. هل هى كثرة فلوس ، أم كثرة ديون ، أم قلّة فهم ؟...

لكل عصر ، ولكل مكان ، ولكل ظروف التكنولوجيا الخاصة بها ، والتى يجب أن تستغل فيما اخترعت من أجله .. وإلا كنا نهين أعظم إنجازات العقل البشرى ، يجب ألا نطارد الفئران بالمدرعات ، كما يجب ألا نصطاد البط بمدفعية الميدان ..

ترى ، ماذا يحدث للمريض عندما يصاب جهاز «الريموت كونترول» بعطل ما .. أو عندما يخطئ بعض العاملين عليه ؟

أراهن أن المريض لن يصل لغرفته مطلقاً ، سوف يتمشى بين كل ممرات المستشفى ، مصطدماً ببقية المرضى والأطباء والممرضين والزوار .. مصطدماً بالجدران ، مخترقاً كل العنابر ، داخلاً إلى المطبخ ، خارجاً منه ، داخلاً الأسانسير ، هابطاً للدور الأرضى ، خارجاً من المستشفى إلى الشارع ، وسوف نكون محظوظين فى النهاية إذا وجدناه يسابق السيارات فوق كوبرى أكتوبر ..

***

(الغراب .. والصابونة (*))

*** في ركن من حديقتي ، حوض صغير تنبت فيه أزهار الأمثال والمصطلحات الشعبية ، ومنها أتعلم الكثير ، فالمثل والمصطلح الشعبي ، يتمتعان بقدرة مذهلة على تلخيص كتب بأكملها في إيجاز مثير وممتع ... استمع لهذا المثل» ..**

ـ سألوا الغراب : سرقت الصابونة ليه ؟...

قال : أصل الأذية طبعي ..

* * *

في ثماني كلمات فقط ، لخص المثل بعبقرية فذة آلاف الكُتب التي تناولت بالشرح والتحليل ظاهرة العدوان في النفس البشرية .. مستخدماً في ذلك بنجاح رموزاً شفافة تجعله يصل مباشرة إلى هدفه ، وهو رسم صورة متكاملة وواضحة لطبيعة العدوان ، فالغراب ـ كما هو معروف ـ طائر مكروه في الوجدان الشعبي ، وفي التراث الإنساني بشكل عام ، هو رمز للسواد والحزن والفجيعة ، يكفي أننا نسمي الصوت الذي يصدره : «النعيق» ..

*وهو لا يسرق قطعة الصابون ليستحم بها . أو لأنه تصورها بجهله قطعة من الجُبْن مثلاً ، عند ذلك قد نلتمس له الأعذار بل سرقها ليحرم صاحبها من استخدامها ، وليغرمه ثمن صابونة أخرى .. وليشعره بالألم لفقدها ، وليؤجل

(*) مجلة كل الناس ٢/١٠/ ١٩٨٩

موعد استحمامه أو غسيله ، فيرغمه على البقاء فترة متسخاً تعلوه الأقذار ، بما يسببه ذلك من إحساس بالغيظ والنكد ..

هو باختصار يؤذيه ، بلا سبب ، ولا هدف ، ولا سابق معرفة .. لست فى حاجة لدراسة كل ما كتبه كل عباقرة مدرسة التحليل النفسى لكى أتعرف على أصالة وطبيعة العدوان فى النفس البشرية ، يكفينى هذا المثل العبقرى الذى غرسه أجدادى فى حديقتى ، ولكن هل هذا المثل يبحث عن مبرر وغطاء للعدوان يضفى عليه شرعية من نوع ما ، أم أن له هدفاً آخر ، هل هو يدفعنا إلى استسهال وممارسة العدوان على الآخرين ، لأن ذلك طبع مركب فينا ، أم أنه ينبهنا إلى ضرورة الاعتراف والتعرف ، الاعتراف بأن العدوان طبع أصيل فى الإنسان ، ثم التعرف على مصادر ذلك العدوان لكبته و إعلائه وتحويله إلى مسارات إنسانية أخرى أكثر رقياً وتحضراً ..

كم غراب قابلته فى حياتك ، سرق منك قطعة من عملك ، أو من أفكارك، أو من أحلامك ، كم غراب هبط عليك وسرق قطعة من حاضرك ومستقبلك ..

كم غراب يطير فوقنا منتهزاً أية فرصة لإيذائنا ، بلا نفع شخصى .. أقصد بلا نفع غرابى .. ومع ذلك فإن ذلك الغراب ، بطل المصطلح الشعبى ، يتمتع بقدر من الشجاعة الأدبية جعلته يجيب بصدق ، إن هدفه ، كان الإيذاء لمجرد الإيذاء ..

* أما الغربان المنافقة التى نالت قدراً من الثقافة والتعليم ، فلن تجيب بهذا الوضوح وذلك الصدق .. بل ستلقى علينا محاضرة طويلة ، قبيحة ومدافعة عن

نفسها وعن فعلتها ..

لو أن غراباً من ذلك النوع اختطف صابونة ، ثم قُبض عليه متلبساً .. فسوف يقول لك على الفور :

لقد كان هدفى هو إنقاذ صاحب الصابونة من الآثار المدمرة المترتبة على استخدامها ، فنوعها ردىء ، وبها مواد تؤذى البشرة وتسبب سرطان الجلد .. وهى مصنوعة من زيت الترالملم المحرم استخدامه دولياً .. ولقد حاولت تحذيره بنعيقى ، ولكنه تجاهله ، لذلك كان لابد من أن أخطفها من أمامه وأطير بها بعيداً .. وتحملت فى سبيل ذلك طعمها الردىء ، ورائحتها القاتلة وأنا أحملها منقارى ..

إننى مندهش ومتألم ، هل أنا متهم بالسرقة والأذى والعدوان بسبب فعلتى النبيلة التى أنقذت بها ذلك الرجل ، وحميته من الأضرار التى كانت ستلحق به ؟

* إن أبسط أنواع العدوان وأقلها خطراً ، هى تلك التى يلجأ أصحابها إلى الأذى الواضح ، مستخدمين الفعل الملموس ، لأننا نتنبه لهم على الفور ، ونأخذ حذرنا منهم ، ثم نختار الوسيلة التى نحمى بها أنفسنا منهم .. أما هؤلاء الذين يطلقون علينا السموم والنار مختبئة بين الكلمات الذين يقلبون الحق باطلاً ، والباطل حقاً .. لا لشىء إلا الاستمتاع بإيذائنا .. فمن المؤكد أنهم شر أنواع الغربان ..

إنهم هؤلاء الذين ينعقون ثم يسرقون الصابون ، وبذلك نظل بعيدين عن نظافة العقل ونظافة الأفكار ..

* * *

* قصة أول هدية فى التاريخ :

(هات .. حاضر)

فى عصر سحيق من عصور ما قبل التاريخ ، بل وقبل ذلك بكثير ، قبل اختراع الكلمات أو أى شىء آخر .. حدثت هذه الحكاية التى لا يوجد دليل قاطع على حدوثها .. وإن كنا نجزم بحدوثها بفضل الاطلاع الدائم على الحفريات القديمة والرسوم البدائية التى خطها الإنسان الأول على جدران الكهوف بالإضافة لتفكيرنا المستمر فى أحوال البشر ، ودراسة سلوكهم عن قرب وعن بعد ..

إنها قصة أول هدية قدمها رجل لامرأة .. ولما كان من الخطأ أن نطلق على بطلنا اسماً محدداً ، لذلك سيكون من الأفضل أن نسميه «عاااا» فقد كان يصدر صوتاً شبيهاً بهذا المقطع عندما كان يشعر بالخوف أو الجوع أو بأى انفعالات أخرى ..

أما هى فمن الممكن أن نسميها «هاااا» لنفس السبب .. وكان الكهف الذى يعيشان فيه على أطراف الغابة .. قريباً من نبع مياه عذبة .. ويبعد عن البحر مسيرة نصف نهار تقريباً ..

كان «عاااا» هائل الحجم قوياً ،مفتول العضلات ، يستطيع القضاء على ثور برى بضربة واحدة من قبضة يده .. وكان جسمه يتسم بدرجة عالية من المرونة وخفة الحركة مما ساعده كثيراً على تسلق الأشجار فى خفة وسرعة فى

الوقت المناسب للهروب من أسود الغابة ونمورها ..

وكانت «هاااا» جميلة بمقاييس ذلك الوقت .. فقد كان شعرها الطويل الأسود بلون الليل يغطى رأسها ووجهها وجسمها كله .. كانا يتجولان فى الغابة طول النهار .. يتسلقان الأشجار ، ويقطعان الثمار ، ويطاردان الأرانب البرية أو الأوز المتوحشة أو يستلقيان على شاطىء البحر فى استرخاء .. ثم يعودان إلى الكهف فيدخلانه ، ويسدان الباب بصخرة تمنع التراب واقتراب الحيوانات المتوحشة.

هذا بفرض أنه كانت هناك حيوانات أكثر منها توحشاً .. وفى الكهف ـ طبقاً لأقوال بعض العلماء ـ كانا يقضيان لحظات طيبة ..

وذات يوم لاحظ «عاااا» أن «هاااا» تعامله بشكل فيه نفور وجفاء ، وتحرمه من اللحظات الطيبة بل وتصرخ فى وجهه ببعض الأصوات الغريبة التى تمت ترجمتها فيما بعد على النحو التالى :

ـ «**روح إلهى أسد ياكلك**» ..

حاول أن يخضعها بالعنف ففوجئ بها توجه لكمة هائلة إلى فكه أوجعته بشدة وجعلته يمضغ الثمار بصعوبة من فرط الألم.. واكتشف صاحبنا اكتشافه الأول المهم ، القوة لن تجدى ، فهى قوية مثله تماماً ..

ظن أنها جائعة فأسرع إلى الغابة واصطاد غزالة سمينة ، وجاء بها وألقاها تحت قدميها . وأكنها نظرت له باحتقار ، واستياء فقد اصطادت لتوها غزالة أكبر حجماً .

لم يشعر باليأس ، ذهب إلى شاطئ البحر ، واستلقى على الرمال وأخذ يفكر ، لابد أن يفعل من أجلها شيئاً مبهراً لم يفعله من قبل ..

وفجأة جاءته الفكرة فيما يشبه الإلهام ، فعاد مسرعاً إلى الغابة ..

أمسك بحجر مدبب ذى حواف حادة .. واختبأ بين الأغصان الكثيفة فوق شجرة عالية .. جعل من نفسه طُعْماً بشرياً ، فهو يعلم أن النمر سيأتى حتماً عندما يشم رائحته ..

وبالفعل ، جاء النمر متشمماً ، باحثاً عنه .. عند ذلك بسرعة خاطفة وفى تصويب محكم قذف النمر بالحجر فمات على الفور بعد أن تهشم رأسه ..

نزل صاحبنا وبدأ يسلخ جلد النمر ، ثم أخذ الجلد إلى البحر وغسله بقوة ودعكه بالرمال والملح ثم نشره على الرمال الساخنة .. ثم عاد إلى الكهف فوجدها تجلس أمامه وقد أوقدت ناراً ..

فوجئت «هاااا» بالمنظر وأخذت تنظر لجلد النمر باستغراب .. عند ذلك اقترب منها ووضع جلد النمر على جسمها فى حنان .. فيما بعد قال علماء الأجناس والتحليل النفسى ، وقلت أنا أيضاً إنه كان يريد أن يقول لها:

ـ أنت قوية وجميلة مثل النمر .. وأنا أخشاك مثلما أخشاه ..

بعد ذلك اصطحبها إلى بركة مياه قريبة ليريها شكلها الجديد منعكساً على صفحة الماء ..

لم يكن «عاااا» يدرك أن هديته سوف يكون لها كل هذا التأثير المدهش على سلوك «هاااا» تجاهه .. لقد بدأت تعامله بشكل جميل لم يعهده من قبل ، ومنذ تلك اللحظة تغير سلوك صاحبنا تماماً بدأ يقتل الحيوانات والزواحف ليسلخها ويعود بجلودها إلى «هاااا»

وبذلك بدأت أولى أنواع الملابس والأحذية والحقائب فى الظهور واستمرت حتى الآن .. بعد ذلك بدأت مرحلة الإكسسوار ، بدأ يفكر فى تزيين

تلك الجلود بريش الطيور وأنياب الحيوانات المتوحشة يصنع منها عقوداً وحلقاناً إلخ ..

والآن .. صاحبنا عرف طعم السعادة .. لذلك بدأ يكتشف بقية الحروف وخاصة حرف الضاد والراء أضافها لصيحته فأصبحت «**عاااااضر**» ..

ثم اختفت العين فأصبحت حا .. وبدأ يقول لها دائماً : «**حاااااضر**» أما هى ... فقد اكتشفت حرف التاء فأصبح اسمها : «**هاااات**» ..

ومنذ تلك اللحظة تلخصت العلاقة بينهما فى كلتا الكلمتين الخالدتين :

ـ «**هات**» ..

ـ «**حاضر**» ..

* * *

(رسالة الى سيارتى الـ ١٢٥)

لست أزعم أننى أحببتك من تلك اللحظة التى التقيت فيها بك فى مخازن الشركة فى الهرم .. ذات يوم فى شهر مارس منذ أربعة عشر عاماً تقريباً .. فقد كنت أريدك خضراء أو حمراء .. ولكن تلك الدفعة من السيارات ـ دفعتك ياعزيزتى ـ كانت رمادية بلون تراب القاهرة ..

وخضعت للأمر الواقع ، واستلمتك .. ومن حى الهرم إلى المهندسين قدتك بكل حرص وبكل ما أملك من براعة .. فقد كانت تلك هى لحظاتك الأولى التى تخرجين فيها إلى الشارع وتمشين بين السيارات الأخرى والأتوبيسات الضخمة وعربات الكارو ، والبشر المجانين الذين يتراقصون أمامك ومن حولك ..

لم تكن أجزاؤك ناعمة ولينة كما أنت الآن .. جاءت علىَّ لحظات كنت أشعر فيها أنك ترتجفين وتهتزين بعنف عندما كنت أضغط على فراملك .. بل أنك كنت ترتجفين ولا تستجيبين بنعومة لذراعى عندما كنت أنعطف بك يميناً أو يساراً ..

مع الأيام .. بدأت تنشأ بينى وبينك علاقة أُلفة بل وصداقة ما لبثت أن تحولت إلى حب حقيقى .. وأشهد الآن أمامك وأمام التاريخ أنه بدونك لم يكن من الممكن أن أكتب مسرحيتى «الكاتب والشحات» فقد كنت أنت ملهمتى لكتابتها..

فى ذلك الوقت كانت هناك فى مصر جراجات تنام فيها السيارات إلى أن تغيرت الأيام وأصبحت فى الشارع ، بجوار الرصيف تماماً كالمتشردين الذين لامأوى لهم .

هكذا حكمت الأقدار ، ولكن ـ وصدقينى ـ لم أكن سعيداً بذلك .. ولكن ما باليد حيلة .. ومع مرور الأيام .. بدأت أكتشف الصفات المشتركة بيننا: اللون الرمادى ، الاستجابة السريعة ، تواضع الشكل وقوة المضمون .

كنت أتركك بجوار الرصيف أسابيع طويلة عندما أكون خارج القاهرة ، صيفاً أو شتاء ، فى وحل الأمطار أو تحت أشعة الشمس الحارقة .. ولكنك بمجرد أن يلمسك مفتاح «الكونتاكت» كان موتورك يدور على الفور ، ويهدر فى قوة وفرحة وزهو ..

أشهد أنك لم تخذلينى يوماً واحداً ، ومن الغريب أنه حتى الآن لم تمتد يد ميكانيكى لتفتح موتورك ، أو تعبث فى أعماقك ..

بالطبع تعرفين مدى اهتمامى بك ، فأنا لم أشتر لأهل بيتى شيئاً إلا وأحضرت لك مثله .. تذكرين بالطبع العام الماضى .. عندما اشتريت بدلة جديدة وهذا أمر يحدث نادراً ، لقد اشتريت لك أيضاً فرشاً جديداً .. لم أقصّر فى تلبية احتياجاتك فى يوم من الأيام ، فلقد كنت أمدك بأغلى «البوجيهات» وأطعمك أفخر أنواع الزيوت والشحومات ..

كان حرصى على صحتك يفوق حرصى على صحتى .. وفى تلك المرات القليلة التى كان ينتابك فيهاالعطب كنت أسرع بك إلى أكبر الاخصائيين فى عالم الميكانيكا .

تذكرين فى البداية أن درجة حرارتك كانت ترتفع باستمرار بدون سبب واضح .. وكان هذا يدفع الحزن فى قلبى .. ولكن تلك المحنة انتهت بتركيب «رادياتير نحاس» بدلاً من الألومنيوم .. هل تذكرين ذلك اليوم الذى حدث لك فيه انسداد فى الكاربوراتير ؟

لم أنم ليلتها من القلق إلى أن تم غسل «التنك» وكل مواسيرك . عند ذلك نمت مرتاح البال والضمير بعد أن استمعت لصوت موتورك الحلو الناعم وهو يعزف لحن العافية والصحة ..

أننى أريد أن أثبت لك شيئاً واحداً ..

كنت أحبك .. ومازلت .. ومع ذلك ـ وبكل ألم ـ أخبرك بأننا سنفترق ..الفراق هو سُنَّة الحياة ، فنحن فى كل لحظة .. نفارق الأشخاص والأشياء والأماكن واللحظات .. وكل شىء وكل علاقة مصيرها إلى فراق .. إلى أن تأتى اللحظة التى نفارق فيها الحياة نفسها ..

لا تتصورى للحظة واحدة أن عينى قد زاغت على سيارة أخرى ، فلم تُخرج المصانع بعد سيارة تحتل مكانك فى قلبى حتى لو كانت «الزلكة» ..

ولا تتصورى للحظة واحدة أيضاً أننى بدأت أشك فى أدائك ، أو أننى سأفعل بك ما يفعله الأروبيون قساة القلوب عندما يرسلون بسيارتهم إلى مقابر السيارات .. فأنت تعلمين مدى وفائى للأشياء ..

المسألة ببساطة هى أن الأيام قضت بأن أسافر إلى مهمة طويلة .. قد تقولين وماله .. (حُطّنى فى جراج) ..

أعترف أننى فكرت فى ذلك ولكن أين هو ذلك الجراج ؟ وحتى لو وجد .. كم سيطلب ثمناً لإيوائك .. وماذا سيحدث لك فى غيابى ؟ .. إن البشر يدمرون كل شىء كما تعلمين ، وأنا واثق أنه لن يتبقى منك شىء عندما أعود .

ثم إننى يا عزيزتى ـ عفواً فى حاجة لثمنك ـ أرجوك لا تستبشعى صراحتى .. فالناس فى أماكن كثيرة فى هذا العالم يبيعون أولادهم .. ولكن لن

أبيعك إلا لمن يعرف قدرك ، ويقدر تاريخك معى ، ويحافظ عليك ويعاملك بما تستحقين من رعاية وحب .. ولكن صدقينى .. سأفعل ذلك والألم يمزقنى .. يارمادية بلون الأيام ، ياقوية مثل الفرس الجميلة ، ياسريعة يا ثابتة على الطريق .. يا قليلة الاستهلاك .. يا أصيلة ومعاصرة .. يا سيارتى يا جملى .. أهىء .. أهىء .. أهىء ..

* * *